نظريات النقد الحداثي في الميزان

بقلم: د. محمود حسن زيني*
السعودية

إن النظريات الغربية في النقد الأدبي الحديث لها خطورتها وبخاصة البنيوية . وقد بين الدكتور يوسف نور عوض في كتابه : نظرية النقد الأدبي الحديث [١] بصفة عامة أن « نظرية النقد في حقيقتها علم غربي خالص يثير كثيرا من الحساسيات في عالمنا العربي ، ذلك أننا - على حد تعبير المؤلف - ظللنا فترة طويلة نضع نقادنا .. ونحوهم في مصاف المواهب التي تجاوزت إطارها المحلي .. ولكن يجب أن نرى بوضوح أن معظم هؤلاء انطلقوا في واقع الأمر من نظريات وتصورات غربية خالصة، وإذا كان ذلك لا يحرمهم من مكانتهم كنقاد تطبيقيين ، فإنه ولا شك يثير كثيرا من التساؤلات حول أحقيتهم في أن يكونوا نقاد منظرين [٢] . هذا وقد وقف الدكتور يوسف نور عوض طويلا عند الاتجاهات الرئيسة في نظرية النقد المعاصر وناقشها .

* أستاذ الأدب العربي ونقده بجامعة أم القرى كلية اللغة العربية وآدابها.

رأي عبدالقادر القط:

وهناك ناقد آخر شهير، بل هو من كبار النقاد العرب المسلمين الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي ونقده ألا وهو أ.د. عبدالقادر القط، يبين خطورة نظريات النقد الغربي ومناهجه. وهو يرى أن النقد في أيامنا هذه « مصاب بداء تأثر النقاد ببعض نظريات النقد الغربي ومناهجه في التطبيق وانتهى الأمر بهؤلاء إلى الاندماج الكامل مع الغرب في المنهج والأسلوب.وتجاهل هؤلاء النقاد الفروق بين النصوص العربية التي يتجه إليها النقد بالتحليل والتأويل، وأصبحت عطاءات أصحاب النظرية الواحدة- كالبنيوية والأسلوبية- نمطا مكررا لا تكاد تميز ما بينها على مستوى الأسلوب والمصطلحات. وفقد الناقد (شخصيته) التي لا ينبغي أن تغيب عن العمل النقدي. فالنقد-مهما خضع لمناهج النقد العلمي- لابد أن ينطوي على شيء من طبيعة الإبداع والتفرد»[٣]

ويرى الدكتور القط أن « الناقد الآن يقبل على النص منذ البداية ليحلله، ويكشف عن رموزه في طمأنينة حرفية « بالغة وكأنما يقدم(تحليلا معمليا) لمادة جامدة، في حين يمثل النص الأدبي صورة فنية للحياة بقضاياها ومتناقضاتها ونماذجها أو بقدراتها على إثارة الاهتمام أو المتعة أو الدهشة.ويوصي د.القط نقادنا المعاصرين أن يقرؤوا ما يشاؤون، وما ينبغي لهم أن يقرؤوه من نظريات النقد الغربي ومصطلحاته، فذلك ما يجب على كل ناقد بصير أن يفعله، لكن عليهم بعد ذلك أن يتمثلوا ما قرؤوا، لا أن يستعبدوا فكرهم لتلك النظريات. عليهم أن يضيفوا إلى تلك النظريات، أو يعدلوا منها بما يناسب طبيعة النص العربي وقدرة قرائه.ولعلهم إذ يفعلون ينتهون-هم أنفسهم-إلى ابتداع نظريات جديدة وأسلوب جديد خاص بهم في التطبيق»[٤].

البنيوية الغربية في الميزان:-

يكفي أن نعرف ما ذكر عن النظريات النقدية الحديثة فيما تناوله كل من الناقدين السابقين لشهرتهما وتمكنهما ومتابعتهما لكل ما يجد من هذه النظريات.ويكفي أن نعرف أن البنيوية وإن كانت قد انقرضت وماتت وعفا عليها الدهر في مواطن نشأتها في أوربا،فإن كثيرا من المتعلقين بخيوط عنكبوتها في العالم العربي لا يرون بديلا عنها، وغدت شغلهم الشاغل وهم فيما يظنون من كتابة يحسبونها من النقد وعلى النقد، وهي ليست من النقد في شيء أبدا، بل هي من بدع البنيوية وافتراءاتها.

ما هي البنيوية؟

يعرفنا بها أحد دعاة البنيوية في العالم العربي وهو د.صلاح فضل في كتابه: نظرية البنائية بأنها: حفنة من المبادئ اللغوية الأولية، كرس لها حياته القصيرة عالم سويسري-وهو فرديناند دي سوسير ١٨٥٧-١٩١٣م حيث لم يمهله القدر لإنهائها وتسجيلها كتابة، وإنما لم يزد على إملائها في عدة برامج دراسية على طلاب في جنيف، تمثل حجر الزاوية ونقطة الانطلاق في النظرية البنائية.لا في عالم اللغة فحسب، وإنما في جميع ميادين الدراسات الإنسانية.[٥]

د. عبد القادر القط

والبنيوية ليست بنيوية واحدة بل هي عدة بنيويات ذلك لأنها على حد تعبير جان بياجيه «ارتدت أشكالا كثيرة التنوع لا تسمح بتقديم قاسم مشترك وأن البنيات المعروفة اكتسبت معاني تزداد اختلافا.[٦]

وهناك البنيات الرياضية والمنطقية، والفيزيائية والبيولوجية، والبنيات النفسية، والبنيوية اللغوية، والبنيات في الدراسات الاجتماعية والفلسفية، مما تناولها جميعا جان بياجيه بالتحليل. وقد أشار بياجيه إلى أن دي سوسير استوحى من العلم الاقتصادي، لأجل إرساء نظريته عن التوازن المتزامن [٧]، الأمر

الذي يفهم منه أن التأثيرات المكونة التي استطاعت أن تتدخل عند أوائل البنيوية اللغوية والسيكولوجية، كانت طبيعة ذات رياضية، على حد تعبير بياجيه نفسه. وأشار إلى أن ليفي شتراوس- أستاذ علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية - استطاع أن يستنتج نماذجه البنيوية من الجبر العام مباشرة، وإن كان ذلك في نظر جان بياجيه «لا يمكن أن يعد إلا نصرا جزئيا» لأن الميزة الأساسية لما أسميناه بالمدرسة البنيوية في الرياضيات أي مدرسة بورباكي (اسم مستعار لمجموعة رياضيين فرنسيين) هي أنها كانت تسعى لإلحاق الرياضيات بفكرة البنية[٨].

وقد لاحظ د. صلاح أن دي سوسير لم يستخدم كلمة البنية في بحوثه على الإطلاق، وإنما كان يتحدث عن النظام والهيكل والعلاقات، مما يعد إرهاصا بها وتمهيدا لمفهومها في نظره [٩].

ويذكر الدكتور يوسف نور عوض أن البنيوية على الرغم من أنها تأسست على المبادئ التي قامت عليها الألسنية، فإن ظهورها، في حد ذاته، اعتبر حركة أدبية مهمة ومؤثرة خلال الستينات والسبعينات من هذا القرن، وكان من أهم دعاتها - أي جي جريماس، وأمبر تواكو، وتزفتان تودوروف، ورولان الدبارت، وجيرارد جانيت. وغيرهم كثير [١٠].

ويمكن إرجاع البنيوية في نشأتها الأولى إلى «العلامية» الروسية، وكذلك إلى الشكلانية الروسية، وقد أكد ذلك د. عوض. بل إن د. صلاح فضل يؤكد أن المدرسة الشكلية الروسية تعتبر الرافد الثاني من روافد البنائية التي وضع دي سوسير حجرها الأساسي[١١].

البنيوية العربية في الميزان

لقد درست البنيوية دراسات مستفيضة من قبل الغربيين قبل أن يتركها أولئك إلى ما بعد البنيوية من أعداد غير قليلة من المذاهب النقدية الأوربية الحديثة، ودرسوا أنواع البنيويات وعنوا بها كثيرا، ويكفي أن ينظر المرء من ذلك إلى ما احتفظت به عنها دوائر المعارف الغربية ومنها دائرة المعارف البريطانية والقواميس العالمية ومنها قاموس ويبستر. بيد أنه من العجيب كثيرا أن البنيوية على الرغم من هجر الغربيين لها وتجاوزها إلى غيرها من المذاهب التي يرجى أن تكون ذات فائدة أو جدوى في مجال الدراسات النقدية، ولكن البنيوية أو البنائية بعد فسادها واضمحلالها في عقر دارها وسقوطها كما سقطت الشيوعية بعدها في عقر دارها بين عشية وضحاها، أخذ ينبش في قبورها ويصدرها من أوربا وبخاصة من أكسفورد ببريطانيا بنيوي عربي يعتبر من مروجي ومنظري البنيوية في العالم العربي ألا وهو د. كمال أبو ديب، لقد كتب في أكسفورد مقدمة كتابه: جدلية الخفاء والتجلي (دراسة بنيوية في الشعر) وكان قبل ذلك ألف كتابا في البنية الإيقاعية للشعر العربي (بيروت ١٩٧٤م).

ويعرفنا أبو ديب ببنيويته العربية الخطرة في أول سطر من كتابه (جدلية الخفاء والتجلي) بأنها ليست فلسفة « لكنها طريقة في الرؤية، ومنهج في معاينة الوجود ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه، وبإزائه في اللغة لا تغير البنيوية اللغة، وفي المجتمع لا تغير البنيوية المجتمع، وفي الشعر لا تغير البنيوية الشعر. لكنها بصرامتها وإصرارها على الاكتناه المتعمق، والإدراك متعدد الأبعاد، والغوص على المكونات الفعلية للشيء والعلاقات التي تنشأ بين المكونات، تغير الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر، وتحوله إلى فكر متسائل قلق متوثب، ومكتنه، متقص، فكر جدلي شمولي في رهافة الفكر الخالق وعلى مستواه من اكتمال التصور والإبداع [١٢].

ومعنى كلام هذا البنيوي أن البنيوية: تثوير جذري للفكر، وأنها خطر على المجتمع واللغة والشعر، إذ تغير كل ذلك وتحوله كما قال إلى فكر متسائل، قلق، متوثب مكتنه، متقص، فكر جدلي شمولي. وسوف نقف طويلا عند « جدلي وشمولي».

ويمضي أبو ديب في تصريحاته المثيرة بحقيقة البنيوية فيقول ما نصه: « ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث، يستحيل

بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا، يرى العالم ويعاينه.

مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالا أن نعاين المجتمع، كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث، وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه أصبح محالا أن نرى كرسيا كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو.

ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العلامات نفسها، التي تعنى، أصبح محالا أن نعاين الوجود - الإنسان والثقافة والطبيعة - كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية [١٣].

وهكذا يكشف لنا أبو ديب عن المضامين السيئة في النقد البنيوي الحداثي، ويبين العلاقة الحميمة بين البنيوية والماركسية قبل سقوطها، وقد سقطت إلى غير رجعة، فلماذا التعلق بالبنيوية التي لا يقل خطرها عن الشيوعية الحمراء ؟ وسوف يتضح لنا كيف أن البحث العلمي أثبت أن البنيويين خلقوا نوعا من المصالحة بين الماركسية والبنيوية. ويفصح أبو ديب عن سر من أسرار البنيوية في نصه السابق، من أن البنيوية لها أهداف تخريبية. فمثلما قلب بيكاسو الفن والرسم وحوله إلى طلاسم وتهويمات، أصبح محالا أن يرى البنيويون كرسيا كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو، ويقصد أبو ديب باختصار شديد، أن الفن التراثي أو التراث المأثور قد عفا عليه بيكاسو بفنه وكرسيه، ولم يعد في مجال الفن سوى فن بيكاسو وليس غيره، وهذا كلام لا يختلف عليه اثنان. وهناك ما هو أدهى وأمر في النص السابق، يتلخص في أنه مع البنيوية ومفاهيم التزامن، والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالا أن يرى البنيويون الوجود، كما كان يعاينه الذين

كمال أبو ديب

لم تكن مهمة «أبو ديب» إلا أن يؤسس بنيوية النقد الحداثي الجديد في البلاد العربية، ويغري به الشباب، ويجذب إليه المفتونين

سبقوا البنيوية. ولا أدري هل أعد البنيويون أنفسهم لرؤية شيء لا يراه بنو البشر ؟ أو أنهم يحلمون بكشف الحجب لهم ؟ وأنى لهم ذلك ؟ ثم إن العلامات التي أشار إليها أبو ديب هي ما يسمونه بالسيمولوجية وهي البنيوية نفسها، ومن هنا يتبين لنا جليا أن «علامات» المنتشرة في أوساطهم هي البنيوية ولا شك أبدا، وهي ما يسمونه بالسيمولوجية وهي الرموز والعلامات كذلك.

ولا يكتفي كمال أبو ديب بهذا الوصف الصريح لحقيقة البنيوية المذهب النقدي الحداثي الهدام فحسب، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول:بهذا التصور والإصرار عليه يكون هذا الكتاب، الذي يهدف إلى اكتناه جدلية الخفاء والتجلي وأسرار البنية العميقة وتحولاتها -طموحا، لا إلى فهم عدد من النصوص،أو الظواهر في الشعر والوجود،بل إلى أبعد من ذلك بكثير:إلى تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية، إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة، المتقصية، الموضوعية، والشمولية والجذرية في آن واحد: أي إلى فكر بنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة، بل يطمح إلى تحديد المكونات الأساسية للظواهر-في الثقافة والمجتمع والشعر- ثم إلى اقتناص شبكة العلاقات التي تشع منها وإليها، والدلالات التي تنبع من هذه العلاقات، ثم إلى البحث عن التحولات الجوهرية للبنية، التي

تنشأ عبرها تجسيدات جديدة، لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق ربطها بالبنية الأساسية وإعادتها إليها، من خلال وعي حاد لنمطي البنية: البنية السطحية والبنية العميقة (١٤).

ويتضح من الاعتراف الصريح الذي أدلى به أبو ديب عن حقيقة البنيوية، أنها ليست عملا أدبيا أو نقديا، أو وسيلة إلى فهم النصوص أو الظواهر الأدبية، وليس ذلك فحسب بل هي شيء خطر جدا على الفكر العربي والإسلامي خاصة في نظرته للثقافة والإنسان والشعر.

ولم تكن مهمة «أبو ديب» إلا أن يؤسس بنيوية النقد الحداثي الجديد في البلاد العربية، ويغري به الشباب، ويجذب إليه المفتونين، وقد فعل ذلك كثيرا، وعن مهمته الصعبة هذه يكشف أبو ديب القناع في صراحة متناهية فيقول: « وبهذا التصور أيضا، فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه رفضي نقضي (هدام والعياذ بالله) لأن الزمن لم يعد زمن القبول بالرقع الصغيرة التي أسميناها خلال مئة عام - منجزات عصر النهضة العربية - ولأن الفكر العربي بعد مئة عام من التخبط والتماس والبحث والانتكاس ما يزال - في أحواله العادية - فكرا ترقيعيا، وفي أفضل أحواله فكرا توفيقيا - حيث لا يهدد التوفيق بنية الثقافة القديمة، لكنه يظل فكرا نافيا، حيث يهدد حتى التوفيق بنية هذه الثقافة. ولأن الفكر العربي ما يزال عاجزا عن إدراك الجدلية التي تشد المكونات الأساسية للثقافة والمجتمع، والتي تجعل بنية القصيدة تجسدا لبنية الرؤيا الوجودية: بنية الثقافة، والبنى الطبقية، والبنى (الاقتصا- سية)، والبنى (الفكر - نفسية) في الثقافة. ولأن الفكر العربي كذلك ما يزال عاجزا عن التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع، ولقوانين التطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه، ولأن الفكر العربي أخيرا، ما يزال عاجزا عن أن يبلور تصورا بنيويا لمشروع سياسي أو اقتصادي، أو لدراسة قصيدة أو رواية، أو لإنشاء جامعة أو مؤسسة تجارية أو عسكرية (١٥).

الفكر العربي في نظر أبو ديب، فكر ميت لا حياة فيه أبدا . ومن عجب أن يُرمى الفكر العربي بمثل هذه الاتهامات ممن يجري في جسده دم عربي

ويكفي أن يعرف القارئ لكتاب (جدلية الخفاء والتجلي) لأبي ديب أن طموحه ثوري تأسيسي. وفي الآن نفسه رفض نقضي - هدام بكل ما تعنيه الكلمة - ومن أجل هذا أولع البنيويون بالتحطيم والنقض والهدم، فحطموا الدلالة الوضعية للغة ودعوا إلى نبذ قواعدها والقضاء على معانيها، لتستحيل بعد ذلك إلى رموز وعلامات. هذه هي البنيوية وهذه هي طموحاتها كما بينها أبو ديب في النص السابق. ولا يعني التثوير الجذري للفكر، باختصار شديد، إلا إلغاء المبادئ والتراث والعقل العربي (ويقصد العقل الإسلامي)، ووجود الأمة الإسلامية في تاريخها وحضارتها وثقافتها، والبحث عن أمة جديدة ومبادئ وأفكار جديدة كل الجدة كما يتمنى أبو ديب كل ذلك في أحلام يقظته. لقد انهال أبو ديب على فكرنا واتهمه بالترقيعية حينا وبالتوفيقية حينا آخر. ومع كل ذلك أو بعد كل ذلك جعلته فكرا نافيا، أي عاجزا عن إدراك الجدلية... وعاجزا عن إدراك التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع ولقوانين التطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه !

فالفكر العربي في نظر أبو ديب، فكر ميت لا حياة فيه أبدا. ومن عجب أن يُرمى الفكر العربي بمثل هذه الاتهامات ممن يجري في جسده دم عربي. بيد أن الفكر المتهم من أبو ديب هو الفكر الإسلامي وليس الفكر العربي. ومن عجب كذلك، بل من أشد العجب، أن يرمى الفكر العربي من عربي أكثر مما رمى به من فرنسي حاقد قبل عقود من الزمن ألا وهو رينان الفرنسي

صاحب النظرية الشعوبية الحاقدة ضد العقلية العربية السامية، بل لقد رمى العقل الإسلامي عدد غير قليل من المنتسبين إلى العرب مثل محمد عابد الجابري وأدونيس ومحمد أركون وعبدالله العروي وغيرهم. ويرى الجابري أن تكوين العقل العربي تكمن فيه الأزمة، وقد قسم هذا العقل إلى عقلين: سلفي ومستغرب. والسلفي عنده: يزداد مع الوقت توغلا في الماضي بالشكل الذي يجعل التفكير فيه يفقد أسبابه الموضوعية، والمتغرب: يحاكي النموذج الأوروبي الذي يتوغل في المستقبل بالشكل الذي يجعل الأمل في اللحاق به يتضاءل أمام اطراد التقدم العلمي والثقافي الهائل [١٦].

ونمضي مع كمال أبو ديب في بنيويته العربية التي تحمس لها كثيرا في كتابه (جدلية الخفاء والتجلي)، واختار قصيدة أبي تمام في « فتح عمورية » وقصيدة من خمريات أبي نواس، وذكر أن العلاقات بين الثنائيات قد تكون علاقات نفي سلبي وتضاد مطلق. وذكر كذلك أن العلاقات قد تكون علاقات توسط يهدف إلى إعادة الخلق عبر التحول والتحويل - كما في قصيدة أدونيس - كيمياء النرجس - حلم -، وقد تكون علاقات تكامل وتناغم وإغناء وإخصاب، كما هي بشكل طاغ في قصيدة أبي تمام الرائية في مدح المعتصم والربيع [١٧].

ولم يكلف أبو ديب نفسه عناء التنظير للبنيوية لعدد من الأسباب ذكرها في كتابه. بل ذهب إلى التطبيق، وهو عمل تبعه فيه حذو القذة بالقذة البنيويون العرب الحداثيون، الذين اقتفوا أثره وتتلمذوا عليه في هذا الكتاب الخطير، إلى أبعد الحدود في الخطورة.

خطر النقد الحداثي

يستطيع المرء - في وقفة متأنية - أن يعرف على الأقل حقيقة هذا المذهب النقدي الحداثي وخطره المحدق، فيما كتبه كمال أبو ديب في مقدمة كتابه. يقول ما نصه: « لعدد من الأسباب اخترت أن يكون لهذه الدراسات البنيوية طبيعة النقد التطبيقي دون أن أخصص قسما من الكتاب لتقديم الأسس النظرية للمنهج البنيوي. أبرز هذه الأسباب: قيام البنيوية على تراث فكري وفلسفي ولغوي يعود إلى أوائل القرن الحاضر (وبقصد بدون أدنى شك تراث وفكر وفلسفة ولغة فرديناند دي سوسير) وكونها استمرار لتطورات فكرية وفلسفية تضرب جذورها في أعماق التراث الأوربي، ممتدة إلى (هيجل) على الأقل ومفاهيمه الجدلية، وإلى (فرويد) والتحليل النفسي »[١٨].

ويعيب أبو ديب على « الثقافة العربية المعاصرة أنها لم تستطع حتى الآن أن تتمثل هذا التراث الفكري والفلسفي الأوربي تمثلا جيدا، وأن التراث اللغوي - النابع من دي سوسير ما يزال غريبا عليها غرابة شبه مطلقة، وإن كانت أهم أسسه النظرية جزءا من التراث اللغوي العربي، كما يتبلور في عمل ناقد فذ هو عبدالقاهر الجرجاني [١٩]. وأحال د. كمال أبو ديب إلى ما كتبه عن عبدالقاهر الجرجاني.

ولعل السر الغريب في إقدام «أبو ديب»، ومن اقتفى أثره من البنيويين الحداثيين العرب، على النقد التطبيقي العملي بدلا من توضيح نظرية النقد والمنهج البنيوي، هو نظرته إلى القارئ العربي الذي سيخفق إذا ما قدمت له البنيوية في شكل نظري. يقول أبو ديب ما نصه: « في ضوء هذه الحقيقة، يصبح غير ذي جدوى كبيرة أن تقدم البنيوية على مستوى نظري صرف، لأن طبيعة المنهج وخصائصه ستظل عصية الفهم على القارئ العربي، الذي سيخفق لذلك في إدراك القيمة الثورية للبنيوية. أما تقديم المنهج من خلال تجليه في تحليل نصوص مألوفة لدى القارئ العربي، فإنه فيما يرجى، سيتيح له الفرصة لإدراك الهوة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة في الدراسات العربية وامتيازه عليها »[٢٠]. ومن أجل هذا ركز أبو ديب على تقديم نقد بنيوي تطبيقي يحتذى في بعض أشعار أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز، واقتفى أثره في ذلك عدد من البنيويين مثل د. صلاح فضل في كتابه: نظرية البنائية، وكذلك في مجلة فصول التي حشيت بالدراسات والنقد البنيوي الحداثي.

البنيوية والعقيدة:

وللإجابة عن السؤال المطروح عن البنيوية: أهي منهج أم مذهب وعقيدة ؟ لقد ظهر بطبيعة الحال دفاع من البنيويين طويل وعريض، رد عليه عدد غير قليل من الباحثين والنقاد والمفكرين ومنهم المفكر الشهير الأستاذ أحمد الشيباني، رحمه الله، الذي وضح ارتباط البنيوية بالمادية بسبب مادية البنية، وذهب إلى أنها ليست منهجا بل هي مذهب واضح. وفضح أمر البنيوية والبنيويين وقال بالحرف الواحد: «وتلحد البنيوية بالله عز وجل، وتنادي بموت الإنسان وتقول: بأنه ليس ثمة تاريخ ولا ذات... وأن كل ما هنالك هو بنية تنظم نفسها بنفسها تنظيما يحفظ لها وحدتها ويكفل لها المحافظة على بقائها، ويحقق لها ضربا من الانغلاق الذاتي... وأن أهداف البنيوية هو تحليل الإنسان لا تركيبه... إلخ »[٢١].

وبالإضافة إلى ما قاله الأستاذ أحمد الشيباني رحمه الله ووضحه، فإن د. صلاح فضل قد أثار مثل هذه السؤال عن البنيوية وحقيقتها وأهدافها في كتابه (نظرية البنائية في النقد الأدبي) تحت عنوان: هل البنائية ليست مجرد منهج للبحث عن الإنسان في العلوم الطبيعية والإنسانية، لكنها بما تزود به الباحث من أدوات للتحليل، تفتح أمامه الطريق كي يصل إلى ما قد يصف بعضهم هذا المذهب بأنه علمي دقيق، وقد يصفه البعض الآخر بأنه فلسفي، لاشتماله على نظرية منتظمة عن الإنسان والعالم »[٢٢].

ولم يكتف د. صلاح فضل بما قال عن البنيوية فحسب، بل فضح أمر البنيوية بأكثر من ذلك بكثير. فقد بين أن البنيوية هي الشكل الجديد للماركسية في مقال له في كتابه السابق الذكر، بعنوان «محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية»، ورد فيه ما نصه: « وفي منتصف الستينات بدا في نظر كثير من المثقفين وكأن البنائية قد أصبحت الشكل الجديد الدقيق لمعانقة

صلاح فضل

■ لم يكتف د. صلاح فضل بما قال عن البنيوية فحسب، بل فضح أمر البنيوية بأكثر من ذلك. فقد بين أن البنيوية هي الشكل الجديد للماركسية في مقال له في كتابه السابق الذكر، بعنوان «محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية»

المبادئ الماركسية الأصيلة في ظل أعمال بعض كبار المفكرين والباحثين ذوي الروح التقدمي العظيم، مما جعل مبادئهم تبدو كما لو كانت صياغة علمية حديثة للماركسية، التي تنزع إلى التخلص مما شابها من السلطة الطاغية للحكم الجزئي وإن أعلنت نهاية الإيديولوجيات»[٢٣]. وينص محمد أركون صراحة إلى أن الحداثة التي (ينظرون إليها) هي التي تضع حدا لاستئثار الأديان التقليدية بوصفها الينابيع والمقامات العليا لإنتاج الحقيقة الواحدة وإدارتها[٢٤].

هذا وقد بين د. يوسف نور عوض في أحدث ما كتب عن المذاهب النقدية الحديثة فيما ذكره عن «روبرت شول» صاحب كتاب «البنيوية والأدب » أن « شول » يعترف بأن الدراسات البنيوية تتركز في أساسها على آراء (فرديناند دي سوسير) و(رومان جاكسون)، والشكلانيين الروس، والفونولوجيا الروسية بالإضافة إلى آراء (تروبتزكوي) و (تودروف) وغيرهم من البنيويين الذين استهدفوا خلق نوع من المصالحة بين الماركسية والبنيوية بعد تلك الجفوة الطويلة التي أقامها الشكلانيون بينهم وبين الماركسية....[٢٥].

الماركسية والبنيوية

وإن مما لا شك فيه أن البنيوية في تصوراتها قد سبقتها الماركسية. فهي مثلها ولا تختلف عنها أبدا. والدليل على ذلك ما ينص عليه د. صلاح فضل إذ يقول:

« ويعود هؤلاء المفكرون إلى مصطلح البنية نفسه - الدال على نظام العلاقات الداخلية التي تحدد بعض الخصائص الجوهرية للشيء، وتمثل واقعا لا يمكن حصره في مجرد مجموع العناصر المكونة له وخاضعا لقوانين تحكم وجوده وتحولاته- فيرون أن هذه التصورات قد سبقت بها الماركسية وطبقتها علميا على المجتمعات قبل أن تأتي البنائية فتطبقها على اللغة أو الشعور أو الأدب. ويسوقون للتدليل على ذلك المقدمة التي كتبها ماركس سنة ١٨٥٩م لكتابه: إضافة لنقد الاقتصاد السياسي وهي المقدمة التي يقول فيها: « إن الإنسان من خلال الإنتاج الاجتماعي للحياة يقيم بعض العلاقات الضرورية المستقلة عن إرادته، وهي علاقات الإنتاج التي تنطبق في مرحلة من التطور على قوى الإنتاج المادية. ومجموع علاقات الإنتاج هذه، يمثل البنية الاقتصادية للمجتمع، والقاعدة الحقيقية التي تقوم على أساسها الأبنية العليا التشريعية والسياسية وما يتطلبهما من أشكال الوعي الاجتماعي»[٢٦].

ويجب أن يذكر هنا أن كلود ليفي شتراوس الفرنسي وهو المحور المركزي في الفكر البنيوي يعد ماركسيا، وهذا ما ينص عليه صلاح فضل في موضع آخر من كتابه فيقول: « ولما كانت شخصية ليفي شتراوس محورا مركزيا في الفكر البنائي، فإنه ينبغي لنا أن نعرف إلى أي مدى يعد هذا المفكر ماركسيا وخاصة أنه كثيرا ما يعلن عن ولائه لماركس واعتناقه لمبادئ الجدلية - دياليكتيك- كما أنه يميل إلى البرنامج الاشتراكي سياسيا واقتصاديا ويرى أن مستقبل الغرب - والعالم كله - مرهون بانتصار الاشتراكية »[٢٧]. بيد أن الله جلت قدرته خيب آماله وآمال البنيويين والاشتراكيين على حد سواء.

وهذه كلمة أخيرة تقطع من البنيويين أنفسهم ادعاء من يزعم أن البنيوية ليست مذهبا، بل هي مذهب ماركسي واضح. يقول د. صلاح فضل: « فالبنائية كما رأينا قد ولدت مع الشكلية الروسية والمدارس اللغوية

الفلسفة الجدلية الماركسية، قد رفضت من قبل المفكرين الإسلاميين قبل أن ترفض من السياسيين والاقتصاديين، إذ من المسلمات التي يؤمن بها العقل البشري أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ومكان واحد.

الأوربية والأمريكية وتطورت في ألمانيا بروافدها الخاصة، وفي إيطاليا باتجاهاتها الجمالية المحددة، ولا يمكن بأي حال اعتبار البنائيين ماركسيين مرتدين (أي لم يرتدوا عن الماركسية) بالرغم من أن الصراع بين هذين التيارين لم يخمد أواره حتى الآن. ولا ينبغي أن نغفل أن المنهج البنائي قد فتح جبهة عميقة في صفوف الماركسيين أنفسهم، فانبرى الفيلسوف الكبير (لويس ألتوسير) وغيره لتحليل الماركسية على أساس بنائي لا إنساني، يقبل مبدأ موت الإيديولوجية، وصدرت الكتب عن «بنائية رأس المال» لكارل ماركس [٢٨].

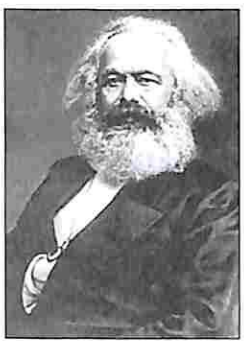

ماركس

فالبنيوية تقول باختصار: « بموت الإيديولوجية أي الدين أو المعتقد، وأخذ الماركسيون يتحدثون ويؤلفون الكتب عن الشيوعية البنيوية، وكذلك العكس عن البنيوية الشيوعية. وقد أشار د. يوسف عوض إلى أن المؤلف يعتبر ميتا في كل من البنيوية وما بعد البنيوية... ويبدو أن موت المؤلف مشروع في البنيوية انطلاقا من الاعتقاد بأن النظام قائم بذاته ولا يحتاج إلى أية عناصر خارجية تفسره. والمؤلف في النظام البنيوي مفعول العناصر التي تكون النظام وليس فاعلها. وليس ذلك هو الوضع فيما بعد البنيوية التي يعتبر وجود المؤلف فيها وجودا تاريخيا في لحظة معينة. وهذه اللحظة لا تعوق ظهور لحظات أخرى لها فاعلها الخاص بها وهو القارئ[٢٩].

الجدلية

ومن المصطلحات الخطرة التي لها بعد شمولي بين المنهج البنيوي مصطلح في النقد الحداثي عرف بالجدلية، والجدلية عند رائد الجدلية المثالية هيجل هي جوهر الفن.

ولنبسط الأمر ونشرح مفهوم الجدلية ما هي؟ هي بكل اختصار ووضوح (الديا-ليكتيكية)، وهي الفلسفة المادية المسماة بالتحدي والاستجابة وهي التي يرسمها هيجل فيلسوف المادية الجدلية بأن الإنسان في هذه الحياة ومع هذا الكون في صراع وتشاكس وتناقض. وعرفت فلسفة هيجل بالنقيض ثم أخذها منه كارل ماركس وطور فيها (الديا-ليكتيكية) وادعى أن الجدلية كافية لتعليل التطورات الكونية والاجتماعية دون الحاجة إلى خالق أزلي عليم حكيم قدير (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا). ولقد أقام الشيوعيون الماركسيون بنيانهم الفكري (المتهدم) والسلوكي الشامل لكل جوانب الحياة على عقيدة جذرية تزعم أن المادة هي كل الوجود... وأن هذه المادة تتحرك وتتطور مرتقية صاعدة وفق قانون الجدلية عندهم.... وزعموا أن هذا القانون هو المهيمن على حركة الوجود كله... وزعموا أن الحياة والفكر هما نتاج هذا الوجود المادي، فهما أيضا خاضعان لقوانين الجدلية [٣٠].

وإن مسألة التحرك أو بعبارة أدق «قانون التحرك» والتطور هو العقيدة التي تزعم عند الشيوعيين الماركسيين أن المادة هي كل الوجود وأن هذه المادة تتحرك بنفسها بدون محرك أي بدون خالق عندهم، فهي خلقت عندهم نفسها بنفسها وأوجدت نفسها من العدم وتطورت واستمرت في التطور، كما يفترون، مرتقية صاعدة وفق قانون الجدلية. هذه هي الجدلية بعينها، ولا شك. ومن عجب أن الخطر الداهم في عالم النقد يأتي من الاعتقاد في هذه الجدلية والإيمان بها وبحذافيرها ومصائبها. وقضية التحريك هذه المخيفة بنيت في النقد الحداثي أو أقيمت أساسا على الصلة الوثيقة بينها وبين قانون النقيض [٣١].

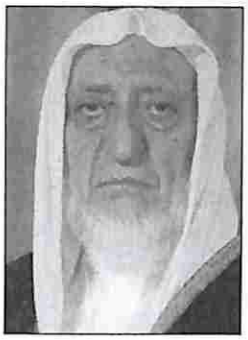

د. عبدالرحمن الميداني

د. محمد سعيد البوطي

وعودا إلى بدء فإن الجدلية أو المادية هي المبدأ الخامس من مبادئ الماركسية المنهارة، وهي التي كانوا يعبرون عنها بوحدة الأضداد أو وحدة التناقضات وهي تتصارع فيما بينها وفق نظام جدلية هيجل الفيلسوف الألماني (١٧٧٠/١٨٣٠م) فيدفع بها الصراع إلى التطور الصاعد (الرفع)، إذ هو السبيل الوحيد (عندهم) لحل التناقض أو التضاد القائم بينها !! وهكذا يمكننا فهم ما يرمي إليه النقد الحداثي أو ما يستعمله من مصطلحات التصارع والتناقض والتطور الصاعد والتضاد والتوتر. وقد تصدى المفكرون الإسلاميون لهذه الفكرة وردوا عليها قويا ومن هؤلاء الشيخ المفكر الشهير عبدالرحمن الميداني، وبين أنها من المستحيلات العقلية التي يرفض العقل إمكان وجودها، فضلا عن رفض الواقع لها [٣٢].

وممن أثبت فشل الفلسفة الماركسية قبل سقوطها المفكر الإسلامي محمد سعيد البوطي وبين أن الفلسفة الماركسية في قانون وحدة الأضداد وصراعها، تطيل البحث في إثبات أن كل شيء في العالم المادي يحتوي على تناقضات داخلية ضمن الشيء الواحد ذاته مهما «ضؤل وصغر» [٣٣].

وعلى أية حال فإن هذه الفلسفة الجدلية الماركسية، قد رفضت من قبل المفكرين الإسلاميين قبل أن ترفض من السياسيين والاقتصاديين، إذ من المسلمات التي يؤمن بها العقل البشري أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ومكان واحد، ولا يتولد أحدهما من الآخر. فالسواد واللاسواد نقيضان.... والتقاؤهما معا ولو

لحظة واحدة ظاهر الاستحالة[٣٤] على حد تعبير الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

والأمثلة كثيرة جدا على انتشار الجدلية في النقد الحداثي، وهي مصطلحات خطرة لها مفاهيمها الخاصة المرتبطة بفلسفتها الحقيقية. يكفي أن يعود المرء إلى: كتاب جدلية الخفاء والتجلي للدكتور كمال أبو ديب ليعرف شغف أصحاب النقد الحداثي، وما أولعوا به من تعلق بمصطلح الجدلية في نقدهم البنيوي، واقرأ في نقدهم، أو كما توهموه من نقد، كلمات مثل: علاقة جدلية، جدلية الخفاء، والتجلي... ويقولون: عالم متناقض.. قيم متناقضة.. الثنائيات.. والتضاد.. والتوتر.. وطابع تصادمي.. ويقولون: ينتقل من النقيض إلى النقيض.. الرؤيا المتضادة.. وحالتين متناقضتين.. ويقولون: تلقي الأضداد وتتوتر اللغة.. الثنائيات الضدية.. ويقول أبو ديب: الشاعر يعيش الأطلال بوصفها تجسد عالما هو النقيض المطلق لعالم الخمرة [٣٥].

والمهم في الأمر أن الجري وراء مصطلح الجدلية إنما هو حب لفلسفة النقيض وجمع بينها وبين وحدة الأضداد، التي تدعو إليها الجدلية الدياليكتيك، كما سبق أن أسلفنا.

ونعود مرة أخرى لنتدبر مقولة د. كمال أبو ديب منظر البنيوية للبنيويين العرب، يعرب أبو ديب في مقدمة كتابه «جدلية الخفاء والتجلي»: مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالا أن نعاين المجتمع كما يعاينه الذين سبقوا ماركس... ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها هي التي تعني أصبح محالا أن تعاين الوجود - الإنسان والثقافة والطبيعة - كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية [٣٦].

وربما كشف د. أبو ديب عن حقيقة الجدلية بقوله عن قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر

وغدا الثرى في حليه يتكسر

ومنها:

ملك يضل الفخـــر في أيامـه

ويقل في نفحاته ما يكثـــر

ويقول أبو ديب: « والمذهب الكلامي هو في جوهره الفعلي تصور ثنائي ينبع من ربط ظاهرتين منفصلتين ربطا جليا يوحد بينهما، وبتوحيده بينهما يتجاوز خللا منطقيا في المنطلق الفكري الأساسي له». وهكذا تصبح القصيدة (أي قصيدة أبي تمام) أيضا ثمرة نابعة من بذرة المذهب الكلامي لأنها تكتنه مفهوم التحول ودلالاته فتقرر أنه سيئ إلا حين يكون في الطبيعة، وتقع بذلك في خلل منطقي لأنها توحي بأن تغير زمن الخلافة في انتقالها إلى المعتصم سيئ سمج، لكنها تتجاوز هذا الخلل المنطقي عن طريق المذهب الكلامي فتربط بين الربيع والمعتصم في عملية محاجة عقلية، تظهر أن قانون الطبيعة لا يسري على المعتصم. ولأنه لا يسري فإن تغير الزمن إلى زمن المعتصم نعمة رائعة، أما تغيره من زمن المعتصم إلى غيره فهو سماجة مؤكدة، ولذلك تنفي القصيدة هذا التغير الأخير [٣٧]. ويخلص إلى القول في نهاية تحليله البنيوي لقصيدة أبي تمام «وبهذين المستويين» من القدرة على تجسيد الرؤيا الشعرية والمستوى النووي

تغلغل الجدلية في النقد الحداثي البنيوي يثبت دون أدنى شك ، انبثاق -أو على أقل تقدير بعبارة أدق- تلازم هذا النوع من النقد بالجدلية الديالكتيكية ، فلسفة النقيض التي ثبت بما لا يدع مجالا للشك فسادها ، وبرهن التاريخ على سقوطها وانهيارها إلى غير رجعة في عقر دارها.

الجزئي والمستوى التركيبي الكلي، تصبح القصيدة لدى أبي تمام في نموذجها المدروس على الأقل، تجسيدا أسمى لجدلية أساسية في كل شعر عظيم، هي جدلية الخفاء والتجلي التي حاولت هذه الدراسة أن تكتنه بعضا من صورها الجوهرية [٣٨].

وعلى أية حال بالاختصار الشديد يتضح لنا جليا أن تغلغل الجدلية في النقد الحداثي البنيوي يثبت دون أدنى شك، انبثاق - أو على أقل تقدير بعبارة أدق- تلازم هذا النوع من النقد بالجدلية الديالكتيكية. فلسفة النقيض التي ثبت بما لا يدع مجال للشك فسادها، وبرهن التاريخ على سقوطها وانهيارها إلى غير رجعة في عقر دارها. ■

الهوامش:

(١) نظرية النقد الأدبي الحديث، د. يوسف نور عوض، دار الأمين، القاهرة، شعبان، ١٤١٤هـ.
(٢) المرجع نفسه، ص٥ - ٦.
(٣) مقال نقدي للدكتور القط في جريدة الندوة، العدد ١٠٧٣٨، ٢٢ شوال، ١٤١٤هـ.
(٤) المقال نفسه
(٥) النظرية البنائية، د. صلاح فضل، مصر، ١٩٧٧م.
(٦) جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة، بيروت وباريس، ط٢، ١٩٨٢م.
(٧) البنيوية، ص١٧.
(٨) البنيوية، ص٢١.
(٩) نظرية البنائية د. فضل، ص٣٢.
(١٠) نظرية النقد، د. يوسف، ص٢٢.
(١١) نظرية البنائية، ص٣٨.
(١٢) د. كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م، ص٨.
(١٣) المرجع السابق.
(١٤) جدلية الخفاء، ص٨.
(١٥) المرجع نفسه، ص٩.
(١٦) د. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي، ص ٢٤.
(١٧) جدلية الخفاء والتجلي، ص٩ - ١٠.
(١٨) المرجع نفسه، ص ١٠ - ١١.
(١٩) المرجع نفسه، ص١٥.
(٢٠) جدلية الخفاء، ص١١.
(٢١) ملحق الأربعاء، جريدة المدينة، ١٤٠٨هـ.
(٢٢) نظرية البنائية، د. صلاح فضل، ص١٦١.
(٢٣) المرجع نفسه، ص٢٢١.
(٢٤) جريدة الحياة، عدد ٢٥ ذي الحجة، ١٤١٤هـ.
(٢٥) نظرية النقد الأدبي الحديث، ص٢٥.
(٢٦) نظرية البنائية، ص٢٢١.
(٢٧) المرجع نفسه، ص٢٢١.
(٢٨) المرجع السابق، ص٢٢٥.
(٢٩) نظرية النقد، ص٤٤-٤٥، وانظر جريدة الشرق الأوسط، ص١٧، من البنيوية إلى النصية للدكتور يوسف نور عوض.
(٣٠) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ عبدالرحمن الميداني. دمشق، دار العلم، ١٤٠٥هـ، ص١٣١.
(٣١) يقال في بعض النقد الحداثي : إن للشعر خاصة والإبداع عامة. نحوه الخاص... ضد النحو تتحرك فيه اللغة. ويقول بعضهم : يخلق أفقا شعريا جديدا يتحرك فيه الشعر... إلخ.
(٣٢) انظر كواشف زيوف للمفكر الشيخ الميداني، ص٥٥٧.
(٣٣) العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. جامعة دمشق، ١٤٠٢، ١٤٠١هـ.
(٣٤) كبرى اليقينات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص٩٦. وانظر : نقض أوهام المادية الجدلية للمؤلف نفسه، ص٥٧ - ٦٦.
(٣٥) جدلية الخفاء والتجلي، ص١٩١.
(٣٦) المرجع نفسه.
(٣٧) المرجع نفسه.
(٣٨) المرجع نفسه.

ماذا تبقى..؟

تبت يداهم..
أحرقوا أغصان
زيتوني،
وورد حدائقي،
لكن أرضي لن تبورْ

حتما ستنبت ...
في المدى من دمعها
بستان نورْ!!
يا حفنة الأوغاد
لا تتجبروا .. وتذكروا
أن احتمالي مثل بركان
يمورْ

فالبحر يغلي، والمرايا
لم تعد فيها الصبايا
ترتدي ثوب الحبورْ!!
والملح يكسو معطفي
والجرح يسكن ..
في ثنايا أحرفي
وتمزقت في عمق..

شرياني الجذورْ
ماذا تبقى ..
في كؤوس مرارتي
كيما أثورْ؟!

شعر : حاتم عبدالمحسن غيث
مصر